

المثاقفة وجاذبية الحضارة الغالبة بين الاستيعاب والاستلاب

- رؤية في تباين الثقافتين بين العرب والغرب -

*Acculturation and the attractiveness of the dominant civilization
between assimilation and alienation*

A vision in the contrast of acculturation between Arabs and the West-

د. الطاهر هاشمي^{1*}

¹ جامعة سعيدة "الدكتور الطاهر مولاي" (الجزائر).

تاريخ الاستلام: 15 فيفري 2022 ؛ تاريخ المراجعة: 17 أفريل 2022 ؛ تاريخ القبول: 26 ماي 2022

ملخص:

إن التأمل العميق في قضية الثقافتين بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية يفضي إلى فرضية وجود اختلاف عميق في طبيعتهما، من منظور تقييم الخصائص العامة لتفاعلهما مع ثقافة الآخر، عبر مختلف مسارات التحول الثقافي، في الماضي والحاضر، ذلك لأن نظام التفكير الذي بُنيت عليه قواعد الثقافتين في الحضارة الغربية لم يستجِب باستمرار لمبادئ المعرفة، باعتبارها تراثاً إنسانياً مشتركاً، بقدر ما استجاب لدوافع الخصوصية الضيقة، كالهيمنة والتفوق، والرغبة الشديدة في السيطرة والاستحواذ. بناءً على هذه الفرضية، سنحاول في هذه الورقة البحثية أن نكشف عن أوجه هذا التناقض في طبيعة المثاقفة بين الحضارتين، من خلال تقييم بعض جوانب تفاعلهما مع تراث الأمم الأخرى، في ضوء معياري الاستيعاب والاستلاب، للوصول إلى إبراز شروط الثقافتين الإيجابي بين الحضارات الإنسانية، كعوامل أساسية لتشجيع الشعوب والأمم على تحقيق الاندماج الفعال في حركة المعرفة العالمية المعاصرة. الكلمات المفتاحية: المثاقفة، الحضارة، العرب، التفاعل، الغرب، الاستيعاب، التباين، الاستلاب.

Abstract:

Deep reflection on the issue of acculturation between Arab-Islamic civilization and Western civilization leads to the hypothesis that there is a deep difference in the nature of each, from the perspective of evaluating the general characteristics of the interaction of each with the culture of the other, through the various paths of cultural transformation, in the past and present, because the system of thinking that was built According to him, the rules of acculturation in Western civilization did not respond consistently to the principles of knowledge, as a common human heritage, as much as he responded to the motives of narrow privacy, such as domination and supremacy, and the intense desire for control and possession. Based on this hypothesis, we will try in this research paper to reveal the aspects of this contradiction in the nature of acculturation between the two civilizations, by evaluating some aspects of their interaction with the heritage of other nations, in the light of the criteria of assimilation and alienation, in order to highlight the conditions for positive acculturation between human civilizations. To encourage peoples and nations to achieve effective integration into the contemporary global knowledge movement.

Keywords: Acculturation, Civilization, Arabs, Interaction, West, Assimilation, Variance, Alienation.

*Corresponding author: e-mail: hachemitahar8@gmail.com.

1- مقدمة

يثير موضوع التفاعل بين الثقافات والحضارات المتعاقبة جدلاً واسعاً على الصعيد المعرفي بوجه عام؛ حيث تقع علاقة الشرق بالغرب موقع الاهتمام الشديد بين المفكرين والباحثين في تاريخ العلاقات بين الحضارات الإنسانية، ويُطرح جانبٌ كبيرٌ من هذا الاهتمام على مستوى تأصيل المعارف الأدبية والنقدية بصورة خاصة، انطلاقاً من فرضية وجود تداخل معرفي بين قيم ثقافية متباينة تنتمي لحضرتي الشرق والغرب، تشكّل في جوهرها بؤرة التجاذب والصراع بين مختلف ألوان المعرفة في هاتين الحضارتين؛ حيث يُوصف فيها الشرق بأنّه مهدُّ حضارة لغوية أصيلة صنع فيها الشعر العربي وما يتصل به من المعارف اللغوية أرقى صور التواصل الإيجابي مع ثقافات الأمم الأخرى، في حين يُوصف الغرب قديماً وحديثاً بأنّه موطنُ حضارة المعارف العقلية والعلمية المختلفة. وقد عزّز هذا الاهتمام طبيعَةُ التجاذب القائمة على تبادل مواقع التأثير والتأثر بين حضرتي الشرق والغرب بسبب تغيّر موازين القيم في جاذبية الحضارة الغالبة، التي تفرض نفسها كمصدر إشعاع معرفي، تستجيب له مختلف التحولات في المجالات الأخرى.

وانطلاقاً من المبادئ الكلية لهذه الفرضية التي يجسدها التجاذب الدائم بين ثقافة الشرق والغرب؛ أو على وجه أدق بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الغربية، تأتي هذه الورقة البحثية المتواضعة لتجيب عن طبيعة التباين في خصوصية تفاعل كل منهما مع ثقافة الآخر، بالنظر إلى المعطيات التاريخية والواقعية التي جسدها ويجسدها على الدوام التفاعل الإيجابي أو السلبي بين هاتين الثقافتين في الحضارتين المتباينتين؛ حيث يأتي الحديث في هذا السياق عن التفاعل إيجاباً أو سلباً في هاتين الحضارتين مع ثقافة الآخر وحضارته على مستوى الجوانب الفكرية والأدبية، كتحقيق عام وشامل لمختلف جوانب التثاقف في الميادين المعرفية الأخرى، اعتباراً بوجود خلل واضطراب عام في منظومة القيم التي تحكم عملية المثاقفة في الحضارة الغربية الحالية، والقائمة في مجملها على فرض منطق الهيمنة والتسلط، والاستحواذ على مقدرات الشعوب الأخرى المادية والمعنوية، في مقابل فرضية وجود قيم تفاعل إيجابي، قائمة على الاحترام المتبادل في ظل مبادئ الحرية والعدل والإخاء.

ومن أجل تحقيق هذا التقييم العام لطبيعة التثاقف بين الحضارتين كان لابدّ من حصر إشكالية هذه الورقة البحثية في الإجابة عن هذين السؤالين الجوهريين الآتيين وهما:

كيف تفاعل التراث العربي القديم مع تراث الأمم الأخرى؟ وكيف تعامل الفكر الغربي الحديث مع تراثنا العربي؟

1.1- المثاقفة وفكرة الأصالة الحضارية:

لقد حرص الإنسان منذ القدم على تعميق صلته بموضوعات الحياة، سعياً منه إلى إدراكها على الوجه اللائق الصحيح، لتحقيق حالة الانسجام والتناغم مع ذاته من جهة، ومع ذوات الآخرين من جهة ثانية، وهو في

سعيه هذا لا يملّ من الاختبار والتجريب والتّحقيق؛ ينظر في المسائل بعقله، ويقبّلها برأيه وفكره، ويستعين على ما في عقله وفكره بما تحقّق في وعيه من تجارب الآخرين، وأعمال السّابقين، وقد يتحقّق له في سعيه هذا بعض ما يصبو إليه، ولكنه يظنّ على يقين أنّ ما انتهى إليه ليس هو الحقيقة المطلقة التي لا تقبل النقاش، ولا هو اليقيني الذي تنقطع بعده الشّكوك.

إنّ تجارب البشر بما يعتري عقولهم من الضّعف والنقص قد تمتدّ في تجارب اللاحقين بهم، لا لتحيا حياة جديدة فقط، بل لتبلغ مبلّغاً من الدقّة والعمق لم تبلغه على أيدي السّابقين، ولذلك تجد المعرفة في كلّ عصر تستدرك نفسها، لتنمو نماءً حيّاً متجدّداً لا يتوقّف، تتعدّد فيه زوايا النّظر، وتكثر وجوه القراءة والفهم كلّما ازداد جموح الإنسان إلى بلوغ مراتب الكمال في كلّ شيء، وهيمات أنّ يبلغ الإنسان ذلك وبين جوانحه همّ للمعرفة لا ينتهي، وإحساس بالنقص لا يزول.

فالعقل الواعي لا يشعر بالرضا عن نفسه، والاعتداد بما عنده، إلّا حين يصاب بالغرور الزائف، والعنجهيّة البغيضة، فتتملكه الأنانيّة التي تُلغي معها فضائل السّابقين واللاحقين على حدّ سواء، حيث يتحوّل الاعتقاد عند الأنانيّ المغرور إلى يقين مطلق، ويتحوّل اليقيني المطلق إلى صنم معبود، وديانة مقدّسة، فمن الطبيعي أن يرى - من كان هذا حاله ودينه - الآخرين ظلّالاً له، وذيلًا يمشي في أعقابهم؛ يأتمر بأمره وينتهي بنواحيه، ولذلك تجده لا يقيم وزناً للانسجام والتّناغم مع ذوات الآخرين، طالما هذا الآخر ذليلاً يُدلف في ركابه، وأسيراً له في غيّه وصوابه.

وإذا كان العقل الواعي ثمرة التّحضر والرّقي، فمن دواعي هذا التّحضر: رحابة الصّدر وسعة الأفق التي تسمح لصاحبها بإقامة جسور التّواصل مع الآخر، في ظل قيم العدالة والحرية، بعيداً عن الأنانيّة المقيّنة، التي لا تعيّن إلّا في الضّمائر المميّنة، والتّفوس المريضة، ولا تنمو وتثمر إلّا في بيئة تُعدّم فيها قيم التّحضر وفضائل الإنسانيّة؛ بيئة تكون فيها الحياة الماديّة الحسيّة فوق كلّ اعتبار، وتكون روح الإنسان، ومعتقداته، وثقافته، وسائر ما يجري مجراها من القيم المعنوية الأخرى، في ذيل اهتمامات هذه البيئة الماديّة.

إنّ اعتراف الإنسان لغيره بالفضل والجميل قيمة حضاريّة عالية، تعكس بحقّ الطّبيعة المعرفيّة في الأمة المتحضّرة، وإنّ الإنكار والجحود والاستعلاء على إنجازات الأمم الأخرى دليل على ما في حضارة المنكرين من نقصٍ وعُوارٍ، وزيفٍ وازورارٍ، ذلك لأنّ حظّ الأمم من العطاء الحضاريّ لا يُقاس بحجم المنجزات الماديّة وإنّما يقاس بما زرعه حضارة الأمة في النفوس من فضائل الخير، وقيم التّآخي والتّسامح، لأنّ هذه الفضائل هي التي تستطيع أن تنفد في القلوب والعقول، فتنبّث في تربتها الخصبة معاني الاعتراف بالآخر، وقبول مشاركته في قيم الإنسانية إنصافاً وعدلاً، وشعوراً وبذلاً، وإنّ تبدلت المواقع، واختلّت الأدوار، ذلك لأنّ مظاهر العطاء الحضارات لا تأخذ اتجاهاً واحداً على الدّوام، فالحضارة التي تكون مصدر عطاءٍ في مرحلة معيّنة، قد تتحوّل إلى مورد للأخذ والتّلقّي في مرحلة لاحقة، وهو حال الحضارات جميعاً، فالأصل كما يقول العقاد: " قدرٌ مشتركٌ

بين جميع الحضارات؛ فكلّ حضارة أبدعت ونقلت، وكان لها سمة تميّزها بين الحضارات العالمية، ولم توجد قطّ حضارة تفرّدت بالإبداع، أو تفرّدت بالنقل، أو خلت من السمة التي تميّزها بين سمات الحضارات⁽¹⁾ (العقاد 1978، ص.28).

لقد قام التاريخ الإنساني الطويل على أساس تبادل الأدوار في احتضان الحضارات الإنسانية، وقد تباينت تلك الحضارات في طبيعتها وخصائصها، تبعاً للقيم التي حملتها، والمبادئ التي قامت عليها، وربما كان مآل الكثير من الحضارات إلى الزوال، بسبب ما في طبيعتها من عناصر الفناء والاندثار، التي تهيأت فيها، حينما غيّبت القيم الإنسانية العالية، والمبادئ السامية، وأعلت شأن الأشياء الحسية والمادية. في الوقت الذي حققت فيه حضارات إنسانية أخرى صفّة البقاء والخلود، ودوام التأثير الإيجابي في كلّ الحضارات الإنسانية اللاحقة، كما هو الشأن بالنسبة للحضارة العربية الإسلامية؛ التي لا تزال إلى اليوم مصدر عطاءٍ فعّالٍ لا ينضب، رغم ما اعترى الأمة التي حملتها من عثرات الزمان، وأثام الأعداء والخلان على حد سواء. ويبقى التاريخ السجل الوحيد لعطاء الحضارات إيجاباً وسلباً "فهو تارة يسجل للأمة مآثر عظيمة ومفاخر كريمة، وهو تارة أخرى يلقي عليها دثارها ليُسَلِّمها إلى نومها العميق"⁽²⁾. (بن نبي، 2012، ص. 65)

إنّ الحضارة التي تستطيع أن تأخذ وتعطي؛ في إنصافٍ وعدلٍ ومساواةٍ وتسامحٍ وإخاءٍ، هي وحدها الحضارة التي تستطيع أن تستعيد لنفسها ريادة الدور الحضاري من جديد، وإن طال بها عهد الفتور والاسترخاء، أما تلك التي تأخذ ولا تعطي، وتنكر فضل الآخر على نهضتها وتحضّرها، بادعائها العصامية والاقتدار، فتلك "حضارة شنيئة"⁽³⁾. (بن نبي، 2012، ص. 60) آيلة للزوال لا محال.

وإذا كانت الثقافة بكلّ أشكالها ثمرة ما تنتجه الحضارة على صعيد الأفكار، فإنّه من الضروري أن تنسجم ثقافة الأمة المتحضرة مع روح حضارتها، لتعكس بصدق طبيعة القيم الإنسانية في أبنائها، والقائمين على أداؤها معرفةً وسلوكاً، فالثقافة التي تقبل الانفتاح على الآخر، وتسمح بإقامة جسور التواصل الإيجابي معه، بعيداً عن فكرة الاستعلاء ورغبة الهيمنة، هي الثقافة التي تُنتج الأفكار وتزود الحضارة من معين العقل والإبداع، لتصبح مُخرجات الحضارة ومُنجزاتها وقوداً يحرك دواليها، ويمدّها بالطاقة اللازمة للدوام والاستمرار.

لقد حقّقت الحضارة العربية الإسلامية في عصورها الذهبية إنجازاً منقطع النظير، بالقياس إلى حضارات الأمم السابقة واللاحقة، عندما استطاعت أن تحتضن إليها كلّ ثقافات الأمم الأخرى، فضلاً عن ثقافتها الأصيلة، دون أن تجد في هذا الاحتضان الإيجابي عقابيل التكيف مع ثقافة الآخر؛ التي تباينها في كثير من القيم والأشياء، وهذا - لاشك - عنوانٌ على الطّبيعة الإيجابية والمتميّزة لحضارة هذه الأمة، بل إنّ ثقافات الأمم الأخرى انصهرت جميعها في بوتقة الحضارة الغالبة، لتشكّل مزيجاً نافعا، ارتوت منه كلّ شعوب الأرض في المراحل اللاحقة، وقد تشكّلت من نهره العظيم كلّ المعارف الإنسانية القائمة إلى يومنا هذا .

إن حضارة بهذه المواصفات العامة -التي أشرنا إليها آنفا- لها أحق بالتنويه والتّمييز عن غيرها من الحضارات الأخرى، وعلى رأسها الحضارة الغربيّة الحالية؛ التي سلكت طريقا غير الذي بدأت منه أوّل مرّة؛ طريقا موحشا أبعداها عن الإشعاع الرّوحي المسيحي، والتّنوير العقلي في مراحلها الأولى، ليرمي بها في برائن الماديّة الأثمة، التي لا تقيم وزنا للرّوح والعقل والوجدان.

2.1- المثاقفة ضرورات وتحديات:

يشكّل موضوع المثاقفة - في الوقت الرّاهن- جدلا واسعا في إطار البحث المقارن بين ثقافات الأمم والشّعوب، ذلك لأنّ قوّة التدافع الحاصل بين ألوان المعرفة في ظل توفّر وسائط التّواصل الإنساني وتنوّعها، تطرح وبإلحاح ضرورة الكشف عن طبيعة التّثاقف بين حضارات الأمم وثقافتها، لا لإحداث مقارنات شكلية في سياق البحث عن علاقات التّأثير والتّأثر؛ على نحو ما كان يجري في بعض الدّراسات المقارّنة السّابقة، ولكن لتحقيق جملة من الغايات السّامية، التي باتت تطرح نفسها كبديل موضوعي لأفكار الهيمنة والاستلاب في ظلّ العولمة الحاليّة، التي قلبت موازين القوّة لصالحها، وأصبحت تمارس تدميج مخرجات الفكر الإنساني برمته.

ومن هنا كان البحث في موضوع المثاقفة- من هذا المنظور الأخير- ضرورة ملحّة تستوجب استحضار الماضي والحاضر معا، للوقوف على طبيعة التّفاعل بينهما، انطلاقا من أنّ الثّقافة مُعطى إنسانيّ يستجيب لطبيعة الحضارة عند الأمّة، ويعكس خصوصيتها وهويتها في التّلقّي والتّأثير. وتأتي المثاقفة في الحقل الفكري والأدبي كنموذج لمختلف أشكال التّثاقف في الحقول المعرفيّة الأخرى، لتجسيد أبعاد التّواصل بين التّراث العربيّ القديم والفكر الغربيّ الحديث؛ الذي يشكل في جوهره خلاصة تراكم إرث معرفيّ إنسانيّ عام، نضجت فرضياته ونتائجُه تحت تأثير التّطور الهائل للعلوم الإنسانيّة الأخرى المرتبطة به، ولا سيما في حقلي: النّفس والاجتماع؛ هذه العلوم التي فرضت منطق التّطور خارج دائرة الاعتبارات الخاصّة بالهويّة والخصوصيّة، فشكّلت منعطفًا حاسما في تاريخ المعرفة، لم يُعد فيه هذا التاريخ خاضعا لمنطق التّطور الطّبيعي في المفاهيم والأشياء، وإنّما صار مرتبطا بالقيم الجديدة التي حملها الفكر الغربيّ عن الإنسان والحياة، وهي قيمٌ تستند إلى المعطيات الماديّة التي أوجدها التّطور العلميّ في إطار البحث التجريبيّ؛ حيث أصبحت الحقائق العلميّة والابتكارات الجديدة البديل المقنع عن التّصورات النّظرية؛ التي حملتها الفلسفات المثاليّة السّابقة عن الكون والحياة، وهو ما حدا بالفكر الغربيّ إلى التّوجّه نحو فلسفة ماديّة شَيْئِيّة لا تؤمن إلّا باللموس، ولا تراهن - في علاقاتها مع الأمم الأخرى- إلّا على ما يحقّق المصلحة والمنفعة.

ومن هنا تحوّل الاهتمام في هذا التّوجه الأخير إلى إقامة العلاقات المختلفة مع الآخر، انطلاقا من المصلحة التي تحدّدها الأهداف الكبرى للعولمة المفروضة بمنطق التّطور المادي الهائل في مختلف المجالات، ممّا جعل القيم الثّقافية والمعرفيّة بوجه عام خاضعةً هي الأخرى لهذا المُعطى الماديّ البغيض؛ حيث دخلت مختلف العلاقات بين العالم المتحضّر والآخر النّامي أو المتخلف تحت طائلة هذا الاعتبار، وهو ما فرض بالفعل مثاقفة مع هذا الآخر؛ قائمة على الهيمنة والاستلاب والتّبعية، انطلاقا من قناعة الإنسان الغربيّ في هذه المرحلة، بأنّ

الثقافة والفكر وما يجري مجراهما من القيم المعنوية والروحية ليست سوى مقتضى من مقتضيات التطور المادي، وجب أن تسير في فلكه وتخضع لنواميسه وقوانينه، وعلى الحضارة الغالبة أن تفرض منطق التفاعل مع الآخر انطلاقاً من القناعات التي حققها التطور المادي.

واعتباراً بالنتائج الوخيمة التي جرّها منطق الغلبة والهيمنة والاستعلاء الغربي- في إطار المثاقفة بين الأمم والشعوب، التي شاركت ولا تزال تشارك هذا العالم المتمدّن في إنتاج الحضارة- وجبت إعادة ترتيب سلم الثقاف وفق إطاره الصحيح، بما يضمن خصوصيات الشعوب والأمم وهوياتها من جهة، وبما يحقق حالة الانسجام بين الثقافات المتباينة من جهة ثانية، في ظل عالم تسوده روح العدل والإنصاف والمواخاة، من خلال الاستيعاب الواعي المتبادل، بعيداً عن فرض مبدأ الاستلاب والغلبة.

2 - المثاقفة وجاذبية الحضارة الغالبة بين الاستيعاب والاستلاب:

إنّ القليل من التأمل في التاريخ الثقافي للحضارة الغربية الحالية والحضارات السابقة، يكشف عن تباين واضح في طبيعة تعاملها مع ثقافات الأمم الأخرى، التي لم تكن قد دخلت بعد في بوتقة الحضارة الغالبة، وإذا كان التاريخ الطويل والغامض لعمر الحضارات السابقة للحضارة العربية الإسلامية لا ينبئ عن الملامح الكاملة لطبيعة التفاعل الثقافي بين هذه الحضارات وثقافات الأمم المعاصرة لها، فإنّ الملاحظة العامة التي تكشف عن انغلاق الحضارات السابقة على نفسها، وانحصارها في أقاليمها وبين شعوبها، أنّ كثيراً من البيئات الجغرافية لهذه الأقاليم الحضارية لم تشهد نهضة مماثلة، بالتزامن مع تطور هذه الحضارات المجاورة لها، بل أنّها لم تشهد مجرد تأثير يُذكر في سياق تفاعل إيجابي مع الأمم غير المتحضرة، التي تتباين معها عرقاً وثقافة وديناً، ممّا يدل على انعدام فاعلية الإشعاع والتأثير في الحضارات السابقة: كال يونانية والفارسية والهندية وغيرها؛ هذه الحضارات التي لم تستطع أن توجد لنفسها مكاناً وتأثيراً في الأمم المجاورة، كالأمة العربية التي استوطنت الحجاز وأطراف اليمن الجنوبي منذ آلاف السنين، ولكنها ظلت في عزلة دائمة عن عوالم الحضارة المجاورة، التي نشأت في حقب تاريخية متباعدة. ولم تعرف الأمة العربية حضارات الأمم السابقة إلا في فترة متأخرة، عندما حملت مشعل الحضارة العربية الإسلامية، وفتحت ذراعها لتحضّن باقتدار وتسامح كبيرين كلّ ثقافات الأمم السابقة، لتعلن -ولأول مرة- عن ميلاد ثقافة الحضارة القائمة على التفاعل الإيجابي والمثمر مع مختلف الثقافات الإنسانية.

لقد كانت تلك اللحظة التاريخية من عمر الثقافة العربية الإسلامية إيذاناً بميلاد المثاقفة الحقيقية في مختلف مجالات المعرفة مع الأمم الأخرى، وعندها انطلقت عقول التاريخ لتنشر هذا المزيج الحضاري المتناعم في شتى أصقاع الدنيا، من الحجاز إلى الشام والعراق، ومنهما إلى بلاد الحضارات السابقة كالفرس والروم، حتى وصلت إلى بسط حضارة كاملة-ولفترة زمنية طويلة- في بلاد الأندلس موطن انطلاق الحضارة الغربية الحديثة.

لقد أُتيح للحضارة الغربية الحديثة أن تنهض من سباتها العميق -خلال القرون الوسطى- على سواعد علماء العرب، ومفكرهم، ونقادهم، وأدبائهم، وسائري راجلات المعرفة فيهم، دون أن يجد هؤلاء جميعاً أنانية في نفوسهم لتبليغ معارف حضارتهم إلى الأمم جميعاً، لأن قيم الحضارة العربية الإسلامية التي حملت هذا التراث العظيم كانت إنسانية في جوهرها، بريئة في أغراضها ومقاصدها، عميقة في تصوّرها للإنسان والكون والحياة.

إنّ مفهوم الحضارة الغالبة بالمعنى السلبي له لم يُعرف إلا في الفكر الغربي الحديث، القائم على أغراض التسلّط والهيمنة، وتكريس مفهوم "تبعيّة المغلوب للغالب" ⁽⁴⁾ -كما يقول ابن خلدون- (بن خلدون، 1982، ص: 258-259)، وهو مفهوم استعماريّ، أوجدته ظروف المجتمعات العربية والإسلامية في ظل أشكال الاستلاب، التي فرضها الغرب الاستعماريّ على هذه المجتمعات؛ حيث تحوّل هذا المفهوم إلى مغالبة وتغليب متّسمين بروح عدوانية سافرة، تحاول دائماً فرض منطق الهيمنة والتسلّط، في مقابل منطق الحوار الإيجابي مع الثقافات الأخرى.

أمّا المفهوم الإيجابي للحضارة الغالبة التي تنجذب إليها ثقافات الأمم الأخرى طواعيةً، لتسير معها جنباً إلى جنب نحو النماء والتطور فلم يتحقّق -في اعتقادنا- إلاّ مرّة واحدة في تاريخ الإنسانية كلّها، عندما احتضنت الثقافة العربية الإسلامية -خلال مرحلة ازدهارها- ثقافة اليونان وفارس والهند احتضاناً أخوياً؛ امتزجت فيه الروح العربية الخالصة بفلسفة اليونان، وعلوم الفرس، وحكمة الهند، حتى غدا هذا المزيج الحضاري المتناعم ثقافةً للجميع في كلّ شبر من الأرض التي وصلتها حضارة الإسلام وعقيدته.

إنّ الثقافة العربية الإسلامية في ظل ازدهار حضارة الأمة ورفعتها، لم تكن يوماً ما ثقافة شعب معيّن، أو ثقافة بيئة منغلقة على نفسها، وإنّما كانت على الدوام ثقافةً عالميةً منفتحةً على الجميع، قادرةً على التعايش الإيجابي مع كل ثقافات الأمم والشعوب الأخرى، وهو ما يدلّ على أنّ قابليّة التعايش والانفتاح سمة الحضارات العظيمة؛ التي لا تموت بتقادم السنين، ولا تنتهي بأفول شمسها عن إنارة القلوب والعقول.

صحيح أنّ الثقافة العربية الإسلامية لم يُتخ لها الاستقرار الكافي، لتبسط نشاطها الحضاريّ الفعّال على مساحة جغرافية أوسع ممّا تحقّق لها في عصورها الأولى، بسبب حركيّة الفتوحات الدّائبة على نشر تعاليم الدّين الإسلاميّ وعقيدته، ولكنّها مع ذلك كانت قادرة على تلبية كلّ الطاقات في أبنائها، وفي الوافدين إليها من أبناء الأمم الأخرى؛ لقد كانت كالبحر الذي وصف به الشاعر المتنبي ممدوحه قائلاً:

"كالبحر يقذف للقريب جواهرًا *** جودًا ويبعث للبعيد سحائبًا" ⁽⁵⁾. (اليازجي، 1981، ص: 244)

إنّ الأمر ليتعسّر على المرء أن يُلم بكلّ ما يدلّ على التّباين الجوهريّ بين حضارة العرب المسلمين وحضارة الغرب، في وجوه العطاء والتّفاعل مع ثقافات الأمم الأخرى، ولكنّه يكفي في هذا السّياق أن نستعرض بعض القضايا المحوريّة التي توضّح هذه الطّبيعة المتباينة للانفتاح والعطاء بين حضارة العرب المسلمين وحضارة

الغرب، من خلال الوقوف عند بعض المحطات البارزة التي حدث فيها التفاعل بين الحضارتين، حيث شكل هذا التفاعل المتبادل على امتداد التاريخ معظم قيم التباين الثقافي القائمة فيهما، والتي لاتزال إلى اليوم تفرض نمطا خاصا، في طرح سياق المقاربة الحضارية بينهما، ولاسيما ونحن نعلم أن الحضارة الغربية لا تزال إلى اليوم تصرّ على إعطاء الصورة الشائنة عن حضارة العرب المسلمين، وتقديمها دائما إلى الأجيال الجديدة على أنها مجرد ثقافة هزيلة بائدة لأمة متخلفة، أسهم الغرب الحديث في إحيائها وترقيتها، واستنهاض همم شعوبها لإلحاقها بركب حضارته، وهذه الصورة المشوهة التي يسوّقها الغرب الحديث عن ثقافة العرب وحضارتهم "تقوم على نظرة عرقية، مفادها تفوّق الأعراق الأوروبية من أريّة وغيرها على الأعراق الأخرى، بل والأجناس الأخرى كالأسامية... وهذه النظرة أملت على الغرب الشّعور بالفوقيّة والسّمو على الأجناس الأخرى"⁽⁶⁾ (النّملة، 2010، ص.30)، وهو ما رسّخ في أذهان الكثير من المهزّمين روح الاستسلام للتبعية والقبليّة للاستعمار، وعمّق الإحساس عندهم بأنّ التبعية لحضارة الغرب الحالية قدر محتوم لا مناص منه.

فالثقافة العربيّة الإسلاميّة إذا خفي فضلها على الحضارة الأوروبيّة الحديثة كما يجهل ذلك الكثيرون، فإنّ فضلها على أجداد الأوروبيين لا يخفى على أحد؛ فهي التي حفظت الثقافة اليونانيّة من الضياع، إذ لولا إسهامات العلماء العرب المسلمين، لما وصلت إلى أيدي النّاس مؤلفات يونانية كثيرة مفقودة في أصلها اليوناني ومحفوظة بالعربيّة. ولقد ظلّ الغرب يشتغل على الثقافة العربيّة الإسلاميّة حتى بعد أن تقلّص ظلّها في الأندلس بجيلين أو أكثر حتى وصل إلى العصور الحديثة. وظلت الثقافة العربيّة الإسلاميّة تستهوي الكثيرين من أبناء العالم الغربي، في ظل تأثير حضارة العرب المسلمين على المسيحيين في أقاليم إسبانيا، تأثير بلغ حد «أن يشكوفيه أحد أساقفة» ألقار، من أنّ شباب الطائفة المسيحية يجتذبهم الشّعور العربيّ، لدرجة أنّهم أغفلوا دراسة اللّغة اللاتينية، وأقبلوا على دراسة اللّغة العربيّة⁽⁷⁾ (النّملة، 2010، ص.42).

والحقيقة أنّ اجتذاب الحضارة العربيّة الإسلاميّة للثقافة اليونانيّة، كان بفضل إسهامات مجموعة من العلماء والمترجمين الكبار، الذين نقلوا أمهات الكتب اليونانيّة إلى العربيّة، وذلك بفعل التّشجيع السياسي الذي حظي به هؤلاء في ظل التّطور الهائل الذي شهدته حضارة العرب المسلمين أواخر العصر الأمويّ، وبداية العصر العباسيّ. وقد كان الخليفة المهديّ (ت 169هـ) أول من أشار إلى ضرورة ترجمة الكتب اليونانية وبشكل خاص الفلسفيّة منها، لذلك طالب المهديّ البطريرك "النسطوري طيموثاوس" الأول بترجمة كتاب «مقولات أرسطو»، وبالفعل تمت هذه الترجمة. وكانت هذه هي الشرارة التي بدأت معها حركة التّرجمة بالتّطور الفعليّ، حتى بلغت أوجها في القرنين الثّالث والرّابع الهجريين، ومن أشهر المترجمين في هذين القرنين: عبد المسيح بن ناعمة الحمصي، ويوحنا بن ماسويه، وحُنين بن إسحاق العبّادي، وإسحاق بن حُنين، وقسطاً بن لوقا البعلبيكي، وأبو بشرمّتي بن يونس القنّائي، وأبو زكريا يحيى بن عُدي، وأبو علي بن زرعة.

هذا وقد كان لأولئك الرجال الأفذاذ الفضل الأكبر في تطوير الحضارة العربية الإسلامية، لأنهم وضعوا مُحصلة الحضارة اليونانية؛ من علوم وفلسفة وآداب، في متناول مُريدي العلم والمعرفة في الإسلام، فأفضى ذلك الى تكوين تيار ثقافي جديد؛ مزج بين المعرفة الدينية العميقة، والمعارف النظرية الأخرى، ذات الأصول اليونانية القديمة، وفي مقدمتها العلوم العقلية والفلسفية، ولم ينظر أصحاب هذا التيار الجديد إلى الثقافة اليونانية بوصفها ثقافة غريبة عنهم، بل تأثروا بها الى أبعد حد، ونظروا إلى أنفسهم على أنهم الورثة الحقيقيون لها، لدرجة يذكر فيها بعض الباحثين في تاريخ هذه الحقبة أن فيلسوف العرب الكندي (ت 252 هـ) افتعل نسباً أكد فيه أن "يونان" وهو الجد الرمزي لليونانيين القدماء هو أخ لقحطان جد العرب، وبهذا يصير العرب المسلمون هم الورثة الشرعيون للثقافة اليونانية، بل إن ابن سينا عندما كان يأتي على ذكر الفلاسفة اليونانيين كان يسميهم (الشركاء). وهنا تظهر القيمة الحقيقية لطبيعة التفاعل بين الحضارة العربية الإسلامية والثقافة اليونانية؛ التي لم تعد مجرد ثقافة وافدة وغريبة، بل صارت جزءاً لا يتجزأ من ثقافة الأمة المتحضرة⁽⁸⁾ (كوتاس؛ ت: نقولا زيادة، 2003، ص.159).

لقد بلغ الحد بإقبال العرب المسلمين على ثقافة اليونان ومعارفهم مبلغاً لم يحصل في حضارة من قبل، ولا من بعد، لدرجة تحوّل فيها هذا الإقبال إلى حالة من الشغف الشديد جعل بعضهم يحفظ جانباً من التراث اليوناني عن ظهر قلب؛ حيث تذكر بعض الآثار أن "يوحنا بن ماسويه" هزأ من "حنين" لما تغيب هذا الأخير ثلاث سنوات ثم عاد بعد ذلك وقد بلغت معرفته باليونانية حدّاً مكّنه من حفظ "هوميروس" وتلاوته غيباً⁽⁹⁾. (كوتاس؛ ت: نقولا زيادة، 2003، ص ص 231-232).

ولم يتوقّف الأمر عند شغف العرب المسلمين بكتب اليونان وآثارهم المختلفة، بل تجاوز ذلك إلى تكريم رموزهم وأعلامهم وإنزالهم منازل الفضلاء من الساسة والعلماء، لدرجة صارت فيها شخصية "أرسطو" لا تميّز عن شخصية عالم من علماء العرب المسلمين في هذا العصر؛ حيث يروي "أحمد بن أبي طاهر" عن "جعفر بن محمد الأنماطي" (أحد جلساء المأمون)، أنه قال: "تغدينا يوماً عند "المأمون" فظننت أنه وضع على المائدة أكثر من ثلاثمائة لون فكلمنا وضع لونا نظر المأمون إليه فقال: هذا يصلح لكذا وهذا نافع لكذا... فقال له يحيى بن أكنم (قاضي بغداد وواحد من جلساء المأمون) . يا أمير المؤمنين إن خضنا في الطّب كنت "جالينيوس" في معرفته، أو في النجوم كنت "هَرْمَس" في حسابه، أو في الفقه كنت علي بن أبي طالب في علمه، أو ذكر السخاء فأنت فوق حاتم في جوده، أو ذكرنا الصّدق كنت أبا ذر في صدق لهجته⁽¹⁰⁾ (ابن طيفور، 1968، ص.30-31).

إن محبة العرب المسلمين وتقديرهم لعلماء اليونان ومثقفهم بلغت مبلغها عظيماً من عقول المسلمين وقلوبهم؛ إعجاباً بهم وتقديراً، لدرجة طال فيها هذا الإعجاب أحلام العامة والساسة على حد سواء؛ حيث تذكر بعض الأخبار أنّ البدايات الحقيقية لاهتمام علماء المسلمين بالتراث اليوناني ورجالاته، ارتبطت بتأسيس "بيت الحكمة" في بغداد، وارتبط نشاط هذا الصّرح العلميّ بالحلم المشهور للمأمون؛ حيث يروي ابن النديم

تفاصيل ذلك بقوله: "رأى المأمون في منامه كأن رجلاً أبيض اللون، مُشرباً حُمرة، واسع الجبهة، مقرون الحاجب أجلى الرأس، أشهل العينين، حسن الشَّمائل، جالس على سريره. قال المأمون وكأني بين يديه قد ملئت له هيبة، فقلت: من أنت، قال: أنا "أرسطوطاليس"، فسررت به وقلت: أيها الحكيم أسألك، قال: سل، قلت: ما الحسن، قال: ما حَسُن في العقل، قلت: ثم ماذا قال: ما حَسُن في الشَّرع، قلت: ثم ماذا، قال: ما حَسُن عند الجمهور، قلت: ثم ماذا، قال: ثم لا ثم. وفي رواية أخرى قلت: زدني قال: من نصحك في الدَّهَب فليكن عندك كالذَّهَب، وعليك بالتوحيد"⁽¹¹⁾ (بن النديم، 1978، ص. 339).

وهذا المشروع الكبير الذي تبناه "المأمون" محبة وتقديراً لمعارف اليونان وثقافتهم، قد تكفل في نهاية المطاف بهضة علمية كبيرة، استطاعت أن تدفع حضارة العرب المسلمين إلى بلوغ أفضل المراتب بين الحضارات الإنسانية كلها، وأن تجعل منها حضارة متفتحة نامية، دون أن تفقد هذه الحضارة يوماً ما خصوصيتها الثقافية وهويتها الإسلامية، ولم يقتصر الدور الحضاري للعرب المسلمين على ترجمة التراث اليوناني فحسب، وإنما قاموا بشرحه ونقده وتصحيحه والتعليق عليه، وساروا به أشواطاً متقدمة، ولهذا لم يتسلم الأوروبيون تراث اليونان كما تركه القدماء، وإنما أخذوه وقد اكتسب بحضوره الجديد، على يد العرب في العصور الوسطى حياة جديدة، دلّت على عمق استيعاب العرب المسلمين لهذا الإرث المعرفي، وحسن التعهد له بالحفظ والتبليغ.

ومع كل ذلك لا يزال الاعتقاد يملأ نفوس الكثير من المفكرين الغربيين-إلى اليوم- بأن الحضارة في تاريخ الإنسانية كلّها لم تتحقق إلا مرتين فقط؛ مرة أولى مع حضارة اليونان، ومرة ثانية مع الحضارة الأوروبية الحديثة، وكل محاولة لإقناع هؤلاء بأن الحضارة العربية الإسلامية تقف شامخة بين هاتين الحضارتين تصطدم بمعارضة حادة، ولذلك فلا جدوة عندهم من إقامة شراكة ثقافية مع أمم لا تنتمي إلى هاتين الحضارتين. ومع ذلك نجد في المقابل فئة من المفكرين الأوروبيين المنصفين، ممن أدركوا الغبن الذي لحق بالعرب المسلمين وحضارتهم، يعلنون صراحة عن مواقفهم الواضحة، التي تكشف عن الدور الأساسي الذي أسهمت فيه الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية والحضارة الحديثة.

إنّ الثقافة العربية الإسلامية في عصرها الذهبي، يكفها شرفاً أنّها استطاعت أن تحتضن الثقافة اليونانية بمختلف أشكال المعرفة فيها، حتى تلك التي لا تمتّ بصلة لعقيدتها ودينها وتقاليدها الأدبية الدائبة على احتضان الشعر، بوصفه ديوان العرب وخلاصة علمهم ومآثرهم، وهذه -لاشك- علامة عامة مميزة للثقافة العربية الإسلامية عن ثقافة الغرب : التي لم تسمح في يوم ما لنفسها أن تستسيغ ثقافة العرب المسلمين، حتى في أشد حالات شعورها بالحاجة إلى معارفهم وثقافتهم، وقد عبّر أحد المنصفين من أبناء أوروبا عن هذا الإعراض والإنكار الذي مارسه الأوروبيون في حقّ الحضارة العربية الإسلامية قائلاً: "إننا معشر الأوروبيين نأبى في عناد أن نقرّ بفضل الإسلام الحضاريّ علينا، ونميل أحياناً إلى التّهوين من قدر وأهمية التأثير الإسلاميّ في تراثنا،

بل ونتجاهل هذا التأثير أحياناً تجاهلاً تاماً، والواجب علينا من أجل إرساء دعائم علاقات أفضل مع العرب والمسلمين، أن نعترف اعترافاً كاملاً بهذا الفضل، أمّا إنكاره أو إخفاء معالمة فلا يدلّ إلا على كبرياء زائف⁽¹²⁾ (مونتجومري، 1983، ص. 8).

3- الخلاصة:

يمكن القول في نهاية هذا العرض السريع، إنّ تباين طبيعة التثاقف بين الحضارتين: العربية الإسلامية والحضارة الغربية -في تفاعلها مع ثقافة الآخر- لم يكن مجرد فرضية تملّها الانطباعات العامة عن علاقة الشرق بالغرب، بل هو حقيقة واقعة بالفعل، بالنظر إلى تقييم هذا التفاعل في ضوء معياري الاستيعاب والاستلاب؛ ذلك لأنّ متطلبات شروط الحوار الثقافي مع الآخر في الحضارة الغربية لم تنسجم مع المبادئ التي يفرضها منطق العدل والإنصاف، وتدعو إليها قيم الإخاء الإنسانيّ السامية، في الوقت الذي استطاعت فيه الثقافة العربية الإسلامية في فترة ازدهار الحضاري أن تحقّق الوعي الكافي بذاتها، وبالذات الغربية التي أصبحت في الوقت الراهن تدير دواليب الحضارة المعاصرة، كما استطاعت هذه الثقافة العربية الإسلامية أيضاً، أن تهض بدور ريادي في إنجاز مثاقفة إيجابية مع مختلف الثقافات المعاصرة لحضارتها، من موطن قوة ومناعة كبيرين، أهلاها لاستيعاب ثقافة الآخر استيعاباً عميقاً، أنتج خلاصة ما يتداوله العصر الحديث من معرفة في مختلف مجالات العلم والفن، مع قابلية للتجدد والنماء لا تتوقف، انصهرت بفعليها كلّ معارف الحضارات الإنسانية السابقة في مشروع حضاريّ ضخم، لاتزال مصادر الإشعاع فيه تضيء الدروب المظلمة في تاريخ البشر إلى يومنا هذا، وتفتح آفاق المعرفة باتجاه بلورة تراث عالميّ مشترك قائم على مبادئ التّحاور النزيه الذي يخدم القيم الإنسانية السامية.

- هوامش البحث:

1- عباس محمود العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوروبية، دار الكتاب اللبناني -بيروت، الطبعة 1 (1978)، ص 28.

2- مالك بن نبي: مشكلات الحضارة (شروط النهضة)، ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، (دار الكتاب المصري - القاهرة / دار الكتاب اللبناني - بيروت) مكتبة الاسكندرية 2012، ص: 65.

3- ينظر المرجع السابق، ص 60

4- يقول ابن خلدون: "والسبب في ذلك أن النفس أبدأ تعتقد الكمال فيمن غلبها، وانقادت إليه إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب فإذا غالطت بذلك، واتصل لها اعتقاداً فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء، أو لما تراه -والله أعلم- من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس لَمَّ، إنما هو بما انتحلت من العوائد والمذاهب، تغالط أيضاً بذلك عن الغلب وهذا راجع للأول. ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدأ بالغالب: في ملبسه، ومركبه، وسلاحه في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله، وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم

دائماً، وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم، وانظر إلى كل قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زي الحامية، وجند السلطان في الأكثر، لأنهم الغالبون لهم حتى أنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري إليهم من هذا التشبه والاعتداء حظ كبير، كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجالقة، فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم، حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء والأمر لله. وتأمل في هذا سر قولهم: "العامة على دين الملك"، فإنه من بابه إذ الملك غالب لمن تحت يده، والرعية مقتدون به، لاعتقاد الكمال فيه اعتقاد الأبناء بأبائهم والمتعلمين بمعلمهم" (عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، دار الكتب اللبنانية-بيروت 1982، ص: 258، 259).

5- البيت من قصيدة جميلة للمتنبى قالها في مدح علي بن منصور الحاجب، ومطلعها:

بأبي الشموسُ الجانحاتُ غوارياً * اللابساتُ من الحرير جلابياً

ينظر: "العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، المجلد الأول، الشيخ ناصيف اليازجي، دار بيروت للنشر والتوزيع-بيروت (1981)، ص 244.

6- علي بن ابراهيم التَّملة: الشرق والغرب منطلقات العلاقات ومحدّداتها، دار بيسان للنشر-بيروت-لبنان، ط3 (2010)، ص 30.

7 - المرجع السابق، ص 42.

8- ينظر دمتري كوتاس؛ الفكر اليوناني والثقافة العربية، ترجمة وتقديم الدكتور نقولا زيادة، المنظمة العربية للترجمة ومركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2003، ص 159.

9- ينظر المرجع نفسه، ص 231-232.

10- ينظر: أحمد بن أبي طاهر المعروف بابن طيفور، بغداد في تاريخ الخلافة العباسية، مكتبة المعارف، بيروت 1968 (م س) ص 30-31.

11- أبو الفرج محمد بن إسحاق بن النديم. الفهرست -دار المعرفة بيروت 1978، ص 339.

12- و. مونتجومري وات (w. Montgomery watt): تأثير الإسلام في أوروبا خلال العصر الوسيط، ترجمة حسين أحمد أمين، دار الشروق بيروت-لبنان / القاهرة - مصر، ط 1 (1983)، ص 8.

- مصادر ومراجع البحث:

1- ابن النديم أبو يعقوب محمد بن إسحاق، (1978). الفهرست، لبنان - بيروت: دار المعرفة.

2- ابن طيفور أحمد بن أبي طاهر، (1968). بغداد في تاريخ الخلافة العباسية، لبنان-بيروت: مكتبة المعارف.

3- كوتاس دمتري، (2003). الفكر اليوناني والثقافة العربية (ترجمة وتقديم الدكتور نقولا زيادة). بيروت-لبنان: المنظمة العربية للترجمة ومركز دراسات الوحدة العربية.

4- العقاد عباس محمود، (1978). أثر العرب في الحضارة الأوروبية، ط 1، بيروت-لبنان: دار الكتاب اللبناني.

- 5- ابن خلدون عبد الرحمن، (1982). المقدمة، بيروت-لبنان: دار الكتب اللبناني.
- 6- النملة علي بن إبراهيم، (2010). الشرق والغرب منطلقات العلاقات ومحدداتها، ط3. بيروت-لبنان: دار بيسان للنشر.
- 7- بن نبي مالك، (2012). مشكلات الحضارة-شروط النهضة (ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين)، مصر: دار الكتاب المصري -القاهرة / دار الكتاب اللبناني -بيروت -مكتبة الاسكندرية.
- 8- و. مونتجومري وات (w. Montgomery watt)، (1983). أثر الإسلام في أوروبا خلال العصر الوسيط (ترجمة: حسين أحمد أمين)، ط1. مصر: دار الشروق (بيروت-لبنان / القاهرة).

كيفية الاستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA :

هاشمي الطاهر، (2022) المثقفة وجاذبية الحضارة الغالبة بين الاستيعاب والاستلاب - رؤية في تباين الثقافتين بين العرب والغرب -، مجلة أنسنة للبحوث والدراسات، المجلد 13(العدد 1)، الجزائر: جامعة زيان عاشور الجلفة، ص.ص 96-108.